دور سلاطين المماليك في تنمية الحركة العلمية

أماني برهان الدين عمر لوبيس*

Abstrak: *Para sultan (penguasa) Dinasti Mamluk berjasa dalam mengembangkan ilmu pengetahuan. Faktor penyebabnya adalah keterlibatan mereka, ulama, dan cendekiawan secara langsung dalam memajukan ilmu. Di samping maraknya suasana ilmiah di Mesir dan Syam dengan adanya gerakan petualangan mencari ilmu, berpindahnya ulama ke Mesir, majunya perwakafan, runtuhnya Baghdad, dan munculnya pusat-pusat pengembangan ilmu dan lembaga pendidikan. Karakteristik keilmuan di era ini ditandai dengan sisi sufistik, partisipasi kaum perempuan dalam pendidikan dan wakaf, serta munculnya keluarga pencinta ilmu, seperti al-Subki, al-Bulqini, al-Qasthalani, al-Qarafi, dan lain-lain.*

Kata Kunci: *Dinasti Mamluk, Salathin, al-harakah al-ilmiyyah, Ulama, Wakaf, Madrasah, dan Dār al-'Adl.*

لم يعد اسم المسلمين يقترن في أذهان غير المسلمين في السنوات الأخيرة إلا بالإرهابية بعد أن أصبحوا متقدمين في العلم والحضارة، وبعد أن أخذت الأطماع الاستعمارية من جهة والأزمات الاقتصادية من جهة أخرى ضعفت الحالة السياسية والاجتماعية للمسلمين. فأخذوا برمي المسلمين بتهم التخلف الحضاري ومحاولة

---

* أماني برهان الدين عمر لوبيس أستاذ مساعد بكلية الشريعة والقانون ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا. علما بأن هذا المقال تم تقديمه في المؤتمر الدولي "الإسلام والمنهج العلمي" الذي عقده جامعة شريف هداية الله الاسلامية الحكومية جاكرتا بالتعاون مع رابطة الجامعات الاسلامية في جاكرتا ٢٣-٢٦ سبتمبر ٢٠٠٣ وننشره في هذه المجلة العلمية بإضافات بعض الحقائق التاريخية والعلمية الجديدة.

وسائل إعلامهم تأليب شعوبهم عليهم وتكوين شعور عدائي ضدهم. وفي الحقيقة أن محاولات أوروبا الحديثة غمط العرب والمسلمين حقهم هي محاولات متكررة، وقد بدأت منذ أن أخذ الأوروبيون يتحررون من سلطان الحضارة العربية، ويبنون حضارتهم المستقلة. فقد أصبح إنكار فضل العرب على أوروبا وتمدينهم لها من تقاليد مؤرخي أوروبا، الذين أخذوا يبحثون عن جذور حضارتهم الحديثة في أوروبا ذاتها وليس بعيدا عنها، فأخذوا يطلقون أن اليونان والرومان هم منبع العلوم والآداب،[1] ويبخسون دور العرب بحجة دورهم لا يعدو أن يكون دور نقل حضارة اليونان والرومان، وأنهم في ذلك ليسوا إلا مقلدين ولم يكن فيما أتوا به مبتكر.

والمتأمل في تاريخ دولة المماليك (١٢٥٠– ١٥١٧م) في مصر والشام يجد أن التاريخ لا يعطي حق المعرفة والتقدير عن هذه الفترة، لنلتقي نظرة عن أسباب عدم الإنصاف في إعطاء التفسير التاريخي للتقدم العلمي عند المسلمين وإسهام المسلمين في الإبداع العقلي في مجالات العلوم المختلفة، خاصة في مصر في عصر دولة المماليك.

أصبحت مصر على عصر سلاطين المماليك محورا لنشاط علمي كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقيا وغربيا وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون. ومما جعل مصر محورا للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس، إذ نحول كثير من العلماء تلك الأقطار إلى مصر واختاروها مجلا لإقامتهم ونشاطهم. ويشبه ذاك من بعض الوجوه ما حدث في غرب أوربا بسبب سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣، لأن سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م جعل علماءها يهاجرون إلى مصر وغيرها من البلاد الواقعة بين بغداد والقاهرة. ثم إن إحياء الخلافة العباسية بمصر على أيدي المماليك سنة ٦٥٩ هـ هيأ القاهرة لأن ترث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي.[2]

ولم يكن سلاطين المماليك وأمراؤهم بعيدين كل البعد عن ذلك النشاط العلمي الذي ساد مصر في عصرهم. وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه" كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب[3] كذلك وجد من سلاطين المماليك – كالسلطان الغوري مثلا- من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية وتناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء. وكثيرا ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة، فتبدأ كل مسألة بعبارة "قال حضرة مولانا السلطان"ثم يأتي الرد على سؤاله

من جانب العلماء ويتضح من دراسة هذه الأمثلة أنها لم تقتصر على ناحية واحدة من نواحي المعرفة، بل تناولت النواحي الدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها. كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم للغة والتدريس لها، ويكفي أن أذكر القارئ بأن اثنين من المؤرخين الذين اعتمدت على مؤلفاتهم في وضع هذا الكتاب يرجعانِ إلى أصل مماليكي، هما أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي وبيبرس الدوادار.

عوامل الازدهار العلمي

توافرت للحركة العلمية في مصر– في ظل دولة المماليك –عدة عوامل، ساعدت مجتمعها على ازدهارها، يمكن إجمالها في الآتي:

أ- مكانة العلماء في مجتمعهم

وطد العلماء لأنفسهم منزلة سامية في نفوس الحكام والمحكومين في مجتمعهم – على حد سواء- استنادا إلى ما للعاطفة الدينية من أثر جياش في نفوس هؤلاء وهؤلاء. ولاة الأمور من سلاطين وأمراء وموظفين يتظاهرون في حماية الإسلام، وتطبيق تعليماته، فضلا عن نشدان ود العلماء وطلاب العلم وتقريبهم منهم، والحرص على حضور مجالس العلم والسماع، وتحصيل الإجازة فيه.[٤] وقول ابن حجر العسقلاني مترجما السلطان المؤيد شيخ: "وكان شهما، عالي الهمة، كثير الرجوع إلى الحق، محبا في الشرع وأهله، صحيح العقيدة، كثير التعظيم لأهل العلم والإكرام لهم".[٥] وقول المقريزي فيه كذلك: "وكان شجاعا مقداما، يحب أهل العلم ويجالسهم، ويجل الشرع النبوي، ويذعن، ولا ينكر على من طلبه منه إذا تحاكم إليه أن يمضي من بين يديه إلى قضاء الشرع، بل يعجبه ذلك وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم، وكان غير مائل إلى شيء من البدع، وله قيام في الليل إلى التهجد أحيانا".[٦] وقول ابن تغري بردى مترجما الظاهر جقمق: "كان معظما للشريعة، محبا للفقهاء وطلبة العلم وكان يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء والصلحاء كائنا من كان، وكان إذا قرأ عنده أحد فاتحة الكتاب نزل عن مدورته وجلس على الأرض تعظيما لكلام الله تعالى، وكان كريما جدا مسرفا مبذرا".[٧] وقول ابن إياس مترجما الأشرف قايتباي: "كان له اعتقاد في الفقراء، ويعظم العلماء، عارفا بمقام الناس، يترل كل أحد مترلته".[٨]

وإذا كان بعض السلاطين قد تظاهروا بحماية الإسلام وتطبيق تعليماته، أو اندفعوا إلى ذلك بقوة إيمانهم وإخلاصهم لدينهم، وقد نشد هؤلاء وهؤلاء تعضيد رجال الدين من علماء وصلحاء لسلطانهم، متخذين إياهم واسطة بينهم وبين عامة الشعب من محكوميهم، فإن كثيرا من العلماء المحيطين بهم–آنذاك–قد أدركوا فيهم هذا الشعور الديني الفياض،واستثمروا هذه العاطفة الجياشة نحوهم، ولصالحهم.[٩]

ب- إجلال السلاطين والأمراء للعلم ومشاركتهم في تحصيله

كما لم يكن كثير من السلاطين والأمراء بمعزل عن العلم، بل كانوا محلين لطرف لا بأس به منه، مشاركين فيه. وكان الظاهر ططر يتكلم في مسائل من الفقه على مذهب أبي حنيفة، مع فهم وذوق، وبراعة في حفظ الشعر باللغة التركية، وإلمان بذلك في الجملة.[١٠] وكان الظاهر جقمق سلطانا "متفقها".[١١] وكان الأشرف قايتباي مشتغلا بالعلم، كثير المطالعة في الكتب، تتلى له أوراد وأذكار في الجوامع.[١٢] ومنهم نغرى برمش الجلالي — نائب القلعة الذي شارك في علوم الحديث والفقه والتاريخ والأدب وفنون الفروسية، وإن كان "أحسن علومه الحديث" لاجتهاده في سماعه وقراءته على الشيوخ، كما كان "ينظم القريض باللغة التركية والعربية".[١٣]

ج- الرحلة في طلب العلم

كما كان لفهم المصريين بالمعرفة، وشغفهم بتحصيل العلم، عدم اكتفاء العلماء والطلاب- غالبا- بما حصلوه من المعارف في أوطانهم ولذا عرفت للكثيرين منهم رحلات إلى الشام والحجاز والمغرب العربي والأندلس، وغيرها. وربما ساعد في ذلك -أيضا- تشجيع ملوك وأمراء هذه الأقطار والنواحي للعلم والعلماء.[١٤] ويشير ابن خلدون إلى أهمية الرحلة في طلب العلم، منبها إلى ضرورتها وبقوله: "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات -أيضا- في تعليم العلوم مخلطة عن المتعلم، حتى قد يظن الكثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلى مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيه،فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق وتوصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لم يسر الله عليه طريق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها فيطلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال".[١٥]

د- وفود العلماء على مصر وإقامتهم فيها

كما كانت مصر موطنا لإقامة دائمة لكثير من العلماء الوافدين عليها كالمحبي الكافيجي وغيره، لما تمتعت به من أمن وأمان -آنذاك- ولما قابلهم به حكامها من تشجيع وإجلال، فكان في ذلك الإثراء للحركة العلمية فيها. بل لقد قدم كثير من العلماء والمحدثين

باستدعاء بعض السلاطين،[16] للأخذ عنهم.

هـ- الأوقاف

ما جبل عليه كثير من سلاطين المماليك وأمرائهم من إقامة العديد من المنشآت الدينية، وحبس الأوقاف المغلة عليها، مما كان سببا في الإكثار من طالب العلم ومعلمه، بكثرة جرايتهم منها.[17]

و- سقوط بغداد

سقوط بغداد وما تبعه من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، مما هيأ لها أن ترث بغداد، وتصبح مركز النشاط العلمي الديني في العالم الإسلامي.[18] على أنه يجب أن لا يغالي في ذلك، إذ الحركة العلمية في مصر لم تكن دخيلة عليها، وإنما كانت حركة راسخة فيها، تمتد بجذورها إلى الفتح الإسلامي لها، كما أن مصر لم تنفرد بادعاء"الخلافة"، فلقد نوزعت فيها-آنذاك- من تونس واليمن. يضاف إلى ذلك أن ارتحال العلماء إلى القاهرة، أو هجرتهم إليها، كان فعلين سابقين ولاحقين على إحياء الخلافة العباسية فيها كذلك، بل إن أعلام هذه الحركة وإن ذكر فيهم من انتموا بالمولد أو المتحد إلى خارجها كالكافيجي والشيخ زادة، أو رجعوا بأصولهم المعروفة إلى أصول غير مصرية كالعراقي والعجمي والعسقلاني- وإن ولدوا فيها — فإن منهم من انتموا إلى التراب المصري بأصولهم القريبة وأصولهم البعيدة، كالدميري والبلقيني والسبكي والدمياطي والسخاوي والسيوطي.[19] عرفت مصر-آنذاك- مراكز عدة، كان لها جميعها حظ وافر في نشر الثقافة والمعرفة، واستمرارية الحركة العلمية، وهذه المراكز يمكن تصنيفها إلى: المكاتب (الكتاتيب) والمدارس والجوامع والمساجد، الخوانق، الربط والزوايا، البيمارستانات والمصحات)، و خزائن الكتب (المكتبات)، و مجالس السلاطين وبعض الأمراء، و بيوت العلماء، وحوانيت الوراقين.

السمات العامة

اتسمت الحركة الفكرية في مصر بسمات علمة طبعت بها، وصارت علما عليها يمكن إجمالها في الآتي:

أ- الاختصاص بالعلم وليس التخصص فيه

إذ وجد أن كثيرا من أعلام هذه الحركة كانوا متعددي الفنون والمعارف، سواء كان ذلك تحصيلاً أم تأليفا، فابن الملقن -مثلا- عدّ له ثلاثمائة مؤلف، كتبت في مجالات: التاريخ، والأدب، والشعر، والفقه والأصول والحديث. ودخل بكتاباته هذه في مجال المؤرخين، والأدباء، والشعراء، والفقهاء، والأصوليين، والمحدثين، وغيرهم.

ب- غلبة الاتجاه الصوفي وتغلغله في سائر فنون المعرفة

اقسمت الصوفية إلى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر وتصدر تولية الشيخ وخلفائه من السلطان المملوكي.[20] وشايع السلاطين حركة التصوف، وشاركوا عامة الشعب في الاعتقاد في الصوفية والعطف عليهم.

فالسلطان برقوق رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين في القاهرة عددا من الصوفية وقرر لهم المرتبات الكثيرة.[٢١]

ج- تعدد فنون المعرفة.

وإن غلبت عليها المعارف الدينية واللغوية وكذا تعود الفنون التأليفية بين موسوعات جامعة كصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، وشروح مختصرات وذيول على مؤلفات سابقة، والحواشي المقسدة على بعض المصادر،.

د- تغلغل المرأة في الحركة العلمية ومشاركتها فيها

إذ لم تكن هذه الحركة العلمية لزاهرة من فعل الرجال فقط، وإنما شاركت فيها المرأة كذلك بقسط وافر، سواء بالتحديث أم بالإسناد[٢٢] أم بالتدريس،[٢٣] أم بعقد المجالس العلمية في بيوتهن. بل إن أكثر مؤرخي هذه الفترة موضع الدراسة ممن ارتحلوا إلى نساء شهرن بحفظ الحديث النبوي والعلو في إسناده، وأخذوا عنهن.

هـ- إنجاب الأسرات العلمية

كما كان من سمات هذه الحركة إنجاب الأسرات العلمية، التي شارك الكثيرون من أفرادها في الإثراء الفكري، تأليفا وتلقينا، واستندت إليهم الكثير من الوظائف والولايات الدينية، كأسرات السبكي[٢٤] والبلقني[٢٥] و القسطلاني، والقرافي... وغيرها. وهكذا، فإن الحركة العلمية في مصر كانت حركة نشطة بثتها فيها مراكز علمية مرموقة. فالحركة العلمية آنذاك لم تفقد حرية التفكير، أو القدرة على الإبداع.

تشجيع الأمراء على تقدم العلم

فقد اجتهد كبار الأمراء في بناء الخوانق والمساجد كنوع من الصدقة وسبيل على الثواب. ففي عام ٧٠٧/ ١٣٠٧م عمر بيبرس الجاشنكير الخانكاه الكنية موضع دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، ووقف عليها أوقافا جليلة، وبنى أيضا تربة بها. وأنشأ عز الدين أيبك الأفرم نائب دمشق جامعا بصالحية دمشق وبعث يسأل في أرض يوقفها عليه، فأجيب بأنه يعين ما يختار".[٢٦] وفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م جمع الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك القضاة والفقهاء بسبب عمل منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين من القاهرة، لإقامة الجمعة بها، فأفتوه بجواز ذلك، فرتب آقوش خطيبا قرر له في كل شهر خمسين درهما، ورتب ستة نفر عملهم مؤذنين، لكل واحد عشرة دراهم في كل شهر، ولقارئ يقرأ القرآن الكريم يوم الجمعة في مصحف أعده له مبلغا سماه، وأقيمت الخطبة بها في يوم الجمعة، فكان يوما مشهودا وجعل آقوش المعاليم المذكورة من عقار وقفة علي ذلك، و تصدق بنحو ثلاثة آلاف إردب من الغلال.[٢٧] وفي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م تم بناء خانكاه الأمير قوصون[٢٨] بجوار جامعه من داخل باب القرافة، فقرر قوصون في مشيختها الشيخ شمس الدين محمد بن محمود الإصبهاني.[٢٩] ويعتبر البيمارستان المنصوري[٣٠] الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون[٣١] صورة حية صادقة لاتجاه بعض السلاطين المماليك نحو

خدمة هدف الخير والتصدق على الناس عن طريق توفير الخدمات الطبية، والوقاية الصحية، والرواتب الشهرية المقررة للأرامل واليتامى والعاجزين. ويظهر أن المنصور قلاوون عند ما أسس البيمارستان وخصص لتمويله الأوقاف الكثيرة كان يتطلع إلى قصدين رئيسين:

أولا- توفير المال اللازم لاستمرار البيمارستان في تقديم الخدمات المطلوبة منه في مجالات الطب والوقاية والتمريض بشكل منتظم.

ثانيا- استثمار هذه الأوقاف حسب القواعد المشروعة في نظام الوقف الإسلامي لهدف تحقيق الربح المادي الكثير.

علاوة على ذلك اجتهد الأمراء المماليك في مد يد المساعدة إلى الأقاليم المملوكية خارج مصر عند ما يأتي الخبر أنها تعاني من قلة المحصول الزراعي وندرة القوات في الأسواق، مع غلاء فاحش في أسعار الغذاء.[32] ففي سنة ٧٦٦هـ | ١٣٦٤م قدم الخبر بغلاء الأسعار بمكة، فجهز الأمير يلبغا الأتابك إلى مكة ألفي إردب قمحا.[33] واجتهد بعض شيوخ الدين الميسورين في بذل الكرم الإنساني للمحتاجين.[34]

ويبدو أن الدولة كانت تخصص جزءا من الصدقات أو الرواتب الشهرية لمساعدة هؤلاء المربين بشكل منتظم، ويمكن القول إنه كان هناك في سلطنة المماليك نوع من الخلايا الاجتماعية التوجيهية التي تتكافل عناصرها ذات القدرة المالية والعطاء المعنوي، والدوافع الخيرية من أجل تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية خدمة للمصالح العام.

و في سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م يذكر المقريزي أنه أمر أن يحدد السلطان الجلوس بدار العدل في كل اثنين، فدار النقباء على القضاة وغيرهم من أهل الدولة، وجلس السلطان في يوم الاثنين، ونودي في الناس من له ظلامة فليرفع قصته بدار العدل، فخاف الأمراء وغيرهم، وأدوا ما عليهم من الحقوق من غير شكوى.[35]

ومن ناحية أخرى كانت دار العدل هي المكان الوحيد الذي يسمح فيه لكافة الناس الاجتماع بالسلطان شخصيا والتحدث إليه بما في نفوسهم من تذمر وشكوى بغض النظر عن مكانتهم في المجتمع والمراكز التي يتولونها سواء أكانت كبيرة أم وضيعة، ولعل أدل حادثة على ما نقول ما حصل في جمادى الأولى سنة ٧٤٠هـ- نوفمبر سنة ١٣٣٩ م حينما "ادعى صلاح الدين يوسف بن المغربي[36] الحكيم على أولاد الملوك بمبلغ عشرة آلاف -درهم عند قاضي القضاة حسام الدين الغوري، تعجلوها منه عن أرض بروضة مصر. وكان النشو قد أخذها منهم وأدخلها في ديوان الخاص، وجرت بينه وبين أبي المغربي مفاوضة جرى فيها على عادته من السفه، فلم يترخص له ابن المغربي وآل المر إلى أن خرج الغوري من المدرسة الصالحية ماشيا، وجمع الحنيفية ليطلعوا إلى السلطان ويشكو أمن ابن المغربي وشكاه على السلطان. فبعث السلطان إليه الأمير طاجار[37]، فوجده

قد طلع إلى القلعة ماشيا ليمين حلف بها، فبلغه طاجار الرسالة، وأراده أن يرجع فأبى أن ينصرف حتى يجتمع بالسلطان. فلم يمكنه السلطان من ذلك وواعده إلى دار العدل فلما لم يجد سبيلا إلى الاجتماع به عاد، وطلع يوم الخدمة إلى دار العدل".[٣٨]

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص بعض النتائج المرتبة على وقوع مثل هذه الواقعة الظاهرة الاجتماعية:

١. الاهتمام بعمل الجسور أو السدود للتحكم في توزيع ماء النيل إلى مختلف المناطق المعمورة والمزروعة.

٢. استخدام النيل كمعبر استراتيجي مهم لنقل الغلات الزراعية من مختلف النواحي إلى لمدن الرئيسية شمال مصر مثل القاهرة والفسطاط والإسكندرية.

٣. التعسف في تسخير "العامة" في سبيل تنفيذ الإنشاءات العمرانية الضخمة التي تهدف إلى تأدية جميع أصناف الخدمات البناءة في إطار الصالح العام للمجتمع.

٤. تعاون فئات الأمراء المماليك الأوليجاركية ذات المصالح الشخصية المتباينة من اجل تقديم المشورة المناسبة لإنجاز أي مشروع مطروح للتنفيذ.

٥. وجد من بين الأمراء المماليك من كان حريصا على حماية العامة من عادة السخرة التي كثيرا ما مارسها بعض أصحاب السلطة ضد هذه الطبقة الضعيفة من رعايا سلطنة المماليك، بل وكان هؤلاء الخيرون يرون فيما يمكن أن يقدمه الأمراء والأجناد والفلاحون من خدمات يستطيعونها غني عن تسخير العامة، فقد كانت تلك الطوائف في وضع مالي واجتماعي ملائم وميسور لدرجة انه يتيح لهم فرصا مواتية لتقديم الإمكانات المطلوبة دون عسر أو مشقة أو ضرر.

٦. الصرف ببذخ كبير في سبيل الإنجازات العديدة لتحقيق المنافع الشاملة لفائدة الرعية على مختلف مستوياتهم، بل كان المشرفون على تنفيذ تلك المرافق والإنشاءات لا يترددون في اتخاذ الرأي الحاسم بما يمكن أن تتكبده الدولة من مبالغ باهظة حيث يساهم ذوو الموارد المالية العالية والمتوسطة، في تمويل مثل تلك المشروعات كل حسب مقدرته على أن يتم ذلك بشكل عادل يتناسب تناسبا طرديا مع قيمة دخله المالي.

٧. كان إنشاء الكثير من المشاريع الإصلاحية في الدولة علاجا ناجعا للقضاء على ظاهرة البطالة حيث يستخدم هؤلاء العاطلين عن العمل في إنجاز تلك الإنشاءات مقابل اجر زهيد، فيكونون بذلك مصدرا لمتعة كبيرة وفائدة شاملة، كما يتوفر لهم بذلك القوت اليومي المناسب، على جانب قضاء وقتهم في المفيد فلا يشغلوا أنفسهم بما يكون به ضرر مادي وعطل فكري.

٨. كانت تلك الإنشاءات العامة تحقق الكثير من صور المنفعة الشاملة لمختلف الطبقات الاجتماعية دون تمييز أو تفرقة.

٩. عانت الفئات الشعبية المتوسطة الدخل مشقة كبيرة في دفع أضعاف المفروض عليها من نصيب المشاركة في تكاليف تلك المشاريع العديدة مما

أدى في كثير من الأحيان إلى انتشار التذمر بين الناس ضد تلك السياسة المجحفة.

١٠. ارتباط مسألة حدوث ري الراضي الزراعية من ماء النيل ارتباطا وثيقا بطبيعة سعر الغلال والحبوب، فإذا وقع ري البلاد انحط سعر الغلال وإذا توقف النيل عن الزيادة وقت الفيضان و لم يتم ري الأراضي الزراعية ارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا مما يثير مشاعر الخوف والفزع عند الناس خشية وقوع المجاعة.

١١. كان وقوع ظاهرة عدم الاستقرار سواء اقتصاديا أم اجتماعيا أم سياسيا سببا أساسيا في حدوث النهب على يد الحرافيش والأوباش مما كان يهدد السلام العام والأمان الأسرى حيث تنهب الدور والمنازل والأملاك الخاصة بسبب ضياع عنصر الاستقرار، ومن هنا جاءت أهمية توفر طابع الطمأنينة الاجتماعية في جميع فترات الحكم المملوكي بغض النظر عن مدى بروز سمة القوة في طبيعة السلطة القائمة في أثناء هذه الحقبة أو تلك.

الأنشطة العلمية

أعظم دليل على النشاط العلمي في عصر المماليك كثرة المدارس التي أنشأها السلاطين من عهد السلطان بيبرس فصاعدا حتى عهد السلطان الغوري. ولا مبالغة في قول القلقشندي أن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس "ما ملأ الأخطاط وشحنها"[٣٩] كذلك ذكر ابن بطوطة عن مدارس مصر في القرن الثامن أنه "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"[٤٠] وعدد منها في مختلف المدن المصرية بالصعيد والوجه البحري.[٤١]

فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك.[٤٢] وهنا كأنواع أخرى من الإجازات عرفها المعاصرون، منها الإجازة "بعراضة الكتب". فيحفظ الطالب كتابا في الفقه أو النحو مثلا ثم يعرضه على أحد مشايخ عصره، فيفتح الشيخ الكتاب ويستقرأ الطالب في عدة أماكن متفرقة، فإذا مضى الطالب فيها من غير توقف أو تلعثم كتب له شهادة بذلك "عرض على فلان". وتتوقف قيمة الإجازة على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية، وهناك من أساتذة وشيوخ ذلك العصر من وصف بأنه "عصر على الطلبة" بمعنى التشديد عليهم وعدم الإجازة لهم في سهولة.[٤٣]

أما عن طريق التربية والتدريس في المكاتب. فقد اشترط على المؤدب "أن يترفق بالصغير، وأن يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة لحروف وضبطها بالشكل، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعا، ثم يعرفه عقائد السنن ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات. وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط علي المثال، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظا غائبا لا نظرا. ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة. ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع

والطاعة، والسلام عليهما وتقبيل أياديهما عند الدخول إليهما. ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والنرد وجميع أنواع القمار.

اختتام

أصبحت مصر في عصر سلاطين المماليك محورا لنشاط علمي كبير بتشجيع من السلاطين والأمراء. فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقيا وغربيا وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون، ومما جعل مصر محورا للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس. إذ تحول كثير من العلماء تلك في الاقطار إلى مصر واختاروها مجلا لإقامتهم ونشاطهم، ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما حدث في غرب أوروبا بسبب سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م، لأن سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. جعل علماءها يهاجرون إلى مصر وغيرها من البلاد الواقعة بين بغداد والقاهرة. ثم إن إحياء الخلافة العباسية بمصر على أيدي المماليك سنة ٦٥٩ هـ هيأ القاهرة لأن ترث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي كله.

الهوامش :

١. هنري س لوكاس، *مختصر تاريخ الحضارة الغربية في العصور الوسطى*، (يوجياكرتا: تيارا واتشانا يوجيا، ١٩٩٣) ص ١٩٤- ١٩٥

٢. ذكر ابن حجر أن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية، قالوا عن بلادهم "هذا بلد ضيق عن علمي" وهاجروها إلى مصر. العسقلاني، *رفع الإصر عن قضاة مصر*، ص ١٦٨ ب)

٣. ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (القاهرة: دار الكتب، د س)، ج ٧، ص ١٨٢.

٤. محمد كمال الدين عز الدين، *الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة* (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠)، ص ٥٠

٥. العسقلاني، *إنباء الغمر بأبناء العمر* (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الدينية، ١٩٧١)، ج ٣، ص ٢٣٧، ٢٥٧

٦. المقريزي، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة: دار الكتب، ١٩٧٣) ج ٤، ص ٥٥٠

٧. ابن تغري بردي، *المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٤)، ج ٤، ص ٢٩٦

٨. ابن إياس، *بدائع الزهور في وقائع الدهور* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٣)ج ٣، ص ٣٢٦

8. Amany Lubis, *Sistem Pemerintahan Oligarki dalam Sejarah Islam*, (Jakarta, UIN Jakarta Press, 2005), h.46.

٩. محمد كمال الدين عز الدين، *الحركة العلمية* ص ٢٢

١٠. ابن تغري بردي، *المنهل الصافي*، ج ٤، ص ٢٩٥

١١.ابن إياس، *بدائع الزهور*، ج ٤، ص ٣٢٦
١٢.ابن تغري بردي، *المنهل الصافي*، ج، ص ٧١ -٧٤
١٣.قاسم عبده قاسم، *عصر سلاطين المماليك* (القاهرة دار الشروق، ١٩٩٤م)، ص ٣٤-٤٦
١٤.ابن خلدون، *المقدمة* (القاهرة: مطبعة بولاق الاميرية. ١٣٢١هـ) بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ٣، ص٤٠٧
١٥.ابن تغري بردي، *المنهل الصافي*، ج ٣، ص ٢١٠-٢١١
١٦.ابن خلدون، *المقدمة*، ج ٣، ص ١٠٢٥
١٧.سعيد عبد الفتاح عاشور، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك* (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٢)، ص ١٤١ محمد كمال الدين عز الدين، *الحركة العلمية* ١٨.سعيد عبد الفتاح عاشور، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك* (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٢)، ص ١٨١
١٩.سعيد عبد الفتاح عاشور، *المجتمع المصري*، ص ١٨٥
٢٠.السخاوي، *الضوء اللامع*، ج ١٢، ص ٥، ٦، ٧، ١٠، ٥٢
٢١.السخاوي، ج١٢،ص٤٥
٢٢.محمد الصادق حسين، *البيت السبكي*، القاهرة، الكاتب المصري، ١٩٤٨
٢٣.السخاوي، *الذيل على رفع الإصر*، (القاهرة: دار المصرية، ١٩٦٦) ص ١٦٢
٢٤. *السلوك*، ج ٢، ص ١٣٧-١٣٨
٢٥.المقريزي، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزي)* (القاهرة: بولاق، ١٨٥٣) ج ٢، ص ١٣٠_١٣١
٢٦.انظر *الخطط المقريزية*، ج٢ ، ص ١٦٦-١٦٧
٢٧. *السلوك*، ج ٢، ص ٢٥١
٢٨.تعريف البيمارستان المنصوري ابن تغري بردي أو غوره ابن عند الظاهر
٢٩.المقريزي، *السلوك*، ج ٢، ص ٢٧٥. ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (القاهرة: دار الكتب، د س)
٣٠.قاسم عبده قاسم ص ١٦١
٣١.النويري، *نهاية الأرب*، ص ٢٩-٢٨
٣٢. *السلوك*، ج٢، ص ٤٦٦-٤٦٧
٣٣. *السلوك*، ج٢، ص٤٧٢
٣٤.دار العدل هو قاعة بقصر السلطان أنشأها السلطان النصر محمد بن قلاوون للنظر في مظالم الناس.
٣٥. *السلوك*، ج٢، ص ٣٦١
٣٦.انظر ترجمته *الدرر*، ج ١، ص٤٢٣-٤٢٤
٣٧.انظر ترجمته *الدرر*، ج٣ ، ص٣٣٢
٣٨.القلقشندى، *صبح الأعشى*، ج ٣ ص ٣٦٧، ٣٦٨
٣٨.*رحلة ابن بطوطة*، ج ١ ص ٧٠
٣٩.*رحلة ابن بطوطة*، ج ١ص ٩٦-١٠٠
٤٠.القلقشندي، *صبح الاعشى*، ج ١٤ ص ٣٢٢-٣٢٦
٤١.الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج ٣٣ ص ١٣١

المراجع

ابن إياس، *بدائع الزهور في وقائع الزهور*، محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٣
ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار (الرحلة)*، تحقيق طلال حرب، بيروت، ١٩٩٢
ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، القاهرة،

--------، *المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي*، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤

ابن خلدون، *المقدمة*، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دس

ابن الشحنة، *البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي*، تحقيق عمر عبد السلام تدموري، بيروت، ١٩٨٣

أحمد، أحمد عبد الرزاق، *البذل والبرطلة زمان سلاطين المماليك*، القاهرة ١٩٧٩

حمادة، محمد ماهر، *الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي*، بيروت، ١٩٨٠

سالم، محمود رزق، *عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي*، القاهرة، ١٩٦٢

السخاوي، *الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة*، تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح،

السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨

عاشور، سعيد عبد الفتاح، *العصر المماليكي في مصر والشام*، القاهرة، ١٩٧٦

-----، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك*، القاهرة، ١٩٩٢

عبد السيد، حكيم أمين، *قيام دولة المماليك الثانية*، القاهرة، ١٩٧٩

عز الدين، محمد كمال الدين، *الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة*، القاهرة، ١٩٩٠

العسقلاني، *رفع الأسرار عن قضاة مصر*، تحقيق: حامد عبد المجيد، القاهرة، ١٩٥٦

--------، *إنباء الغمر بأنباء العمر*، القاهرة، ١٩٧١

العيني، *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: عصر سلاطين المماليك، حوادث وتراجم*، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٢

قاسم، عبده قاسم، *عصر سلاطين المماليك*، القاهرة، ١٩٩٤

القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، القاهرة.

ماجد عبد المنعم، *نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر: دراسة شاملة للنظم السياسية*، القاهرة، ١٩٧٩

المقريزي، *كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*، القاهرة، ١٢٧٠

النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، ١٩٩٢

Little, Donals Presgrave, *An Introduction to Mamluk Historiography*, Franz Steiner Verlag GMBH, Wiesbaden, 1970.

Lubis, Amany Burhanuddin Umar, *Dinasti Mamluk: Sultan Al-Nasir Muhammad ibn Qalawun dan Peranannya dalam Sejarah Islam*. Program Pascasarjana, UIN Syarif Hidayatullah Jakarta, Tesis tidak diterbitkan, 2002.

-------, *Sistem Pemerintahan Oligarki dalam Sejarah Islam*, UIN Jakarta Press, Jakarta, 2005.

Petry, Carl F., *Protector or Praetorians? The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power*, State Uni-versity of New York Press, New York, 1994.